عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

بقلم المؤرخ الكبير

الشيخ عبد الوهاب النجار

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

هذا هو القسم الثانى من البحث القيم ، الذى تفضل الأستاذ الجليل الشيخ النجار ، بتقديمه لقراء (المعرفة) وقد تناول الاستاذ فى القسم الاول الكلام على المهلب والى خراسان وعن يزيد بن المهلب والى خراسان ومنزلته وعلمه وكرمه ، وشجاعته وامارته على خراسان . . . . الخ

تغير الحال بين الحجاج ويزيد وعزله :

عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن إمارة خراسان وتغير له ولآل المهلب ، بعد إذ كان لهم وداً ، وكان الحجاج زوجا لهند بنت المهلب ، ولهذا التغير أسباب عدة :

أولا — أن الحجاج كان قد أذل أهل العراق . فانقادوا له بخزائم الرهبة ، إلا آل المهلب ، فقد كانوا بمنجاة من الذل لمكانهم فى الدولة وعدم من يعنى عناءهم فيها ، ولأنهم أبطال ، قادة ، سادة ، كرماء — ومن عادة الشجاع أنه لا يذل ولا يحمل ضيما — فاشتهى أن يذلهم .

ثانياً — أن الحجاج وفد على عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فمر فى طريقه براهب فقيل له : إن عنده علما فدعا به ، وكان بينهما الحديث الآتى : —

ح : هل تجدون فى كتبكم ما أنتم فيه ونحن ؟ ر : نعم . ح : مسمى أم موصوفا ؟ ر : كل ذلك نجده موصوفا بغير اسم ، ومسمى بغير صفة . ح : فما تجدون أمير المؤمنين ؟ ر : نجده فى زماننا ملكا أفرع من يقم لسبيله يصرع . ح : ثم من ؟ ر : اسم رجل يقال له الوليد ، ثم رجل اسمه اسم نبى يفتح به على الناس . ح : أتعلم من يلى بعدى ؟ ر : نعم ، رجل يقال له يزيد ح : أتعرف صفته ؟ ر : يغدر غدرة ، لا أعرف غير هذا .

سمع الحجاج هذا القول من الراهب ، فأدار عينه فى رجالات الدولة ليعرف يزيد الذى يلى العراق بعده ، فلم يجد ممن يحمل هذا الاسم من ترشحه صفاته وخلاله لأن يلى إمارة العراقين سوى يزيد بن المهلب ، فأضمر له الشر ، وعزم على الكيد له .

ثالثا — أرسل الحجاج الى يزيد أن يغزو خوارزم ، فقال له : إنها قليلة السلب ، شديدة الكلب ، فقال : استخلف وأقدم ، فقال : إنى أريد أن أغزو خوارزم ، فقال له : لا تغزها فانها كما ذكرت . ففزا ولم يطعه ، فغنم وسبا ، وفى عوده أصابهم برد شديد ، فأخذوا ثياب السبي فهلكوا . فقال له الحجاج أقدم ، فقدم قدوم البطل الفاتح ، وكان لا يمر ببلد إلا فرش أهلها له الرياحين .

هذه الأسباب الثلاثة حدت بالحجاج الى الكيد ليزيد بن المهلب ، ووجهت همته إلى عزله ، فأخذ يحسن لعبد الملك بن مروان عزله وتعذيبه وبعض آله ، فكان بين عبد الملك والحجاج ما ملخصه :

أخذ الحجاج يذم يزيد بن المهلب وآل المهلب ، ويطعن فى إخلاصهم لبنى أمية ، ويرميهم بأن هواهم فى آل الزبير وصفوهم اليهم ، فكتب اليه عبد الملك : إنى لا أرى طاعتهم لآل الزبير نقصاً بآل المهلب ، وفاؤهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لى .

لم يكتف الحجاج بذلك ، بل رجع يذم لعبد الملك يزيد ويخوفه غدره وقص له ما سمع من الراهب . فكتب اليه عبد الملك يقول : إنك أكثرت فى يزيد وآل المهلب ، فسم لى رجلا يصلح لخراسان ، فسمى له قتيبة بن مسلم الباهلى ، فكتب اليه أن وله . ولكن الحجاج خشى أن يقوم يزيد وآل المهلب بثورة فى خراسان ، فكتب إلى المفضل بن المهلب ، بأنه ولاه خراسان ، وأمره أن يعجل بارسال يزيد ، فلما عاد يزيد — وذلك فى ربيع الآخر سنة ٨٥ — أبقى المفضل تسعة أشهر ثم عزله وولى قتيبة بن مسلم الباهلى .

مات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ ، وجاء الوليد وليس عنده لآل المهلب ما كان عند عبد الملك من اعتقاد وفائهم وخلوص طاعتهم ، فقبض الحجاج على يزيد وعبد الملك والمفضل أبناء المهلب ، وطالبهم بستة آلاف الف درهم ، واستأذن الوليد فى قتلهم ، فلم يأذن إلا بتعذيبهم بما لا يأتى على أنفسهم ، فكان يزيد يعذب ولا يظهر تألماً ، بل أظهر جلداً نادراً ، وكان ذلك يغيظ الحجاج ، وهو يشتهى أن يرى يزيد متألماً من العذاب ، فدل على موضع من ساقه أصابته نشابة فى إحدى الحروب ، وثبت أصلها فى ساقه ، فلا يمس إلا تألم ، فعذبه فى ساقه ، وحينئذ فارق يزيد تجلده وجأر بالشكوى من الألم ، وعاهد الحجاج على مال يؤديه كل يوم فداء عن عذابه .

ولما صرخ يزيد من الألم سمعته أخته هند زوج الحجاج فصرخت وأعولت ، فطلقها الحجاج ثم إنه كف عنهم العذاب ، وأخذ يستأديهم المال .

هرب يزيد واخوته من سجن الحجاج : ظل يزيد بن عبد الملك والمفضل فى سجن الحجاج الى سنة تسعين ، فلما خرج الحجاج الى (رستافاياذ) ليبعث بعثاً على الاكراد الذين غلبوا على فارس

أخذ معه بنى المهلب الثلاثة ، وجعلهم فى فسطاط قريب منه ، وجعل عليهم كهيئة الخندق . وقد كان الاخوة الثلاثة قبل ذلك ، قد أرسلوا لأخيهم مروان وهو مطلق ، أن يضمر لهم خيلا جيادا ، موهما أنه يريد بيعها ، وأن يغلى ثمنها حتى لا يقبل على شرائها أحد ، وأن يرصدها لهم حتى اذا أتيح لهم الهرب من السجن كانت عدتهم وسبب نجاتهم ، ففعل .

فى معسكر الحجاج تحت سمعه وبصره ، دبر يزيد بن المهلب أمر هربه من سجنه ، فأمر للحراس بطعام كثير فأكلوا ، وأمر لهم بشراب فسقوا ، واشتغلوا بذلك وغفلوا عن أمر يزيد وإخوته ، فاهتبل يزيد فرصة اشتغالهم عنه ، ولبس ثياب طباخه ، ووضع على لحيته لحية بيضاء للتنكر ، وخرج من معسكر الحجاج تحت جنح الليل ، وتبعه أخواه : المفضل وعبد الملك الى سفن معدة سارت بهم الليل كله ، ولما دنوا من البطائح استقبلتهم خيلهم ، فطاروا عليها الى فلسطين ونزلوا بها على وهيب بن عبد الرحمن الازدى ، وكان كريماً على ولى العهد سليمان بن عبد الملك أثيراً لديه .

نترك يزيد بن المهلب فى فلسطين ، ونعود الى الحجاج فنراه قد علم بهرب يزيد ، فأهمه ذلك وكتب الى قتيبة يحذره دخول يزيد عليه خراسان ، والى الوليد يعلمه بهرب ولد المهلب ، ويبعث الطلائع والرواد فى كل طريق يتحسسون شأنهم ، الى أن جاءه الخبر بعد يومين أنهم قصدوا قصد الشام ، فكتب بذلك الى الوليد : أن آل المهلب خانوا أمان الله وهربوا منى ولحقوا بسليمان .

هذا الخطاب من الحجاج أدى إلى الوليد أمرين مختلفى الأثر : أما أولهما ، فان قصدهم سليمان أثلج فؤاده ، إذ علم أن آل المهلب لا يريدون فتنة ولا إثارة حرب على الدولة ، وأما الثانى ، فانه قد اشتد حنقه عليهم للمال الذى قال الحجاج إنه قبلهم .

نرجع الى سليمان بن عبد الملك — وقد تحمل من جوار آل المهلب ما تحمل ، وكفل لهم الأمنة فى كنفه — فنجده قد كتب الى أخيه الوليد أمير المؤمنين ، يطمئنه من جهة يزيد ويضمن له المال الذى عليه ، ويقول له : إن يزيد عندى وقد آمنته ، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف ، لأن الحجاج أغرمه ستة آلاف الف ، فأدى منها ثلاثة آلاف الف ، والذى بقى ثلاثة آلاف الف ، أنا أؤديه .

أما الوليد فلم يرقه ما فعل سليمان ، لأن الدين متى كان على سليمان فهو لا يطالبه به ، فكتب إلى سليمان : والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلى ، فأراد سليمان أن يصور له حاله معه ، ويعلمه أنه جاد فى حمايته ، فكتب اليه : لئن أنا بعثت به اليك لأجيئن معه . ورأى الوليد أن مجىء سليمان مع يزيد يغل يد الوليد عن شىء إن أراده بيزيد ، واذا أصدر عفواً لا يكون ذلك العفو خالصا من شائبة التورط ، فكتب الى سليمان : والله لئن جئتنى لا أؤمنه .

وقف يزيد بن المهلب على ما كان بين الخليفة وولي عهده ، وأن الأمر تحرج بينهما بسببه ، فقال لسليمان : ارسل بى اليه ، فوالله ما أحب أن أوقع بينه و بينك عداوة ، ولا أن يتشاءم الناس بى لكما ، واكتب معى بألطف ما قدرت عليه .

ففعل سليمان ما طلبه يزيد ، وأرسل معه ابنه ايوب ، وكان الوليد قد أمر أن يجيئه اليزيد مقيدا ، فقال لابنه ايوب : اذا دخلت على أمير المؤمنين فادخل أنت و يزيد فى سلسلة ، ففعل. فلما رأى الوليد ابن اخيه فى السلسلة قال : لقد بلغنا من سليمان ، ودفع أيوب كتاب أبيه الى الوليد وقال له هذه الكلمة التى تلين القلوب القاسية ، ونصها كما رواها ابن الأثير :

«ياأمير المؤمنين نفسى فداؤك ، لاتخفر ذمة أبى وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة فى جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذل من رجا العز فى الانقطاع الينا لعزنا بك»

قرأ الوليد كتاب سليمان بعد ذلك وهو يستشفع له و يضمن المال عليه ، واعتذر يزيد فأمنه وعفا عنه ، فرجع يزيد الى سليمان .

كتاب سليمان الى الوليد : كانت نسخة كتاب سليمان : لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك . أما بعد يا أمير المؤمنين ، فو الله إنى لأظن أنه لو استجارنى عدو قد نابذك وجاهدك لأنزلته وأجرته ، فانك لاتذل جارى ، ولا تخفر جوارى ، على أنى لم أجر الا سامعاً مطيعاً ، حسن البلاء والأثر فى الاسلام ، هو وأبوه وأهل بيته ، و بعد فقد بعثت به اليك ، فان كنت انما تعرف قطيعتى ، والاخفار لذمتى ، والابلاغ فى مساءتى ، فقد قدرت ان انت فعلت ذلك ، وأنا أعيذك بالله من اختيار قطيعتى ، وانتهاك حرمتى ، وترك برى وصلتى ، فو الله يا أمير المؤمنين ، ماتدرى بقائى و بقاؤك ؟ ولا متى يفرق الموت بينى و بينك؟ فان استطاع أمير المؤمنين ـ أدام الله سروره ـ أن لا يأتى علينا أجل الوفاة الا وهو لى واصل، ولحقى مؤد ، وعن مساءتى نازع ، فليفعل . والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت لشىء من أمور الدنيا بعد تقوى الله فيها بأسر منى برضاك وسرورك ، وترضاك مما ألتمس به رضوان الله ، فان كنت يا أمير المؤمنين تريد يوماً من الدهر مسرتى وصلتى وكرامتى وإعظام حقى، فتجاوز لى عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو على . فلما قرأه قال : لقد شققنا على سليمان ، ودعا بابن أخيه فأدناه منه ، ثم يزيد بن المهلب ، فقال : بعد حمد الله والثناء عليه وصلى على نبيه :

يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينسى ذلك فلسنا بناسيه ، ومن يكفر فلسنا بكافريه ، وقد كان من بلائنا أهل هذا البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام ، فى المشارق والمغارب ، ما أن المنة فيه عظيمة . فقال له : اجلس فجلس وأمنه.

وكتب الوليد الى الحجاج : إنى لم أصل الى يزيد وأهله مع سليمان ، فاكفف عنهم ولا تكتب الى فيهم ، فكف الحجاج عنهم ، وترك ألف ألف كانت على أبى عيينة بن المهلب ،

وكف عن حبيب بن المهلب — وكان يعذب بالبصرة — وأقام يزيد عند سليمان فى كنف أمنه وغبطة وأرغد عيش وأنعم بال ، لا يهدى الى سليمان هدية الا بعث بنصفها الي يزيد ، ولا تهدى الى يزيد هدية إلا بعث بها الى سليمان ، ولا تعجب سليمان جارية إلا بعث بها الى يزيد .

موت الحجاج : فى خلافة الوليد مات الحجاج سنة ٩٥ هـ واستخلف على حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة ، وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم ، ولم يغير الوليد ما صنع بل أقر خلفاء الحجاج وعماله على حالهم ، ومن هنا نعلم أن الذى خلف الحجاج على العراق يزيد ولكنه غير يزيد بن المهلب الذى اضطهد ظلماً لمجرد التوهم بأنه يلى بعد الحجاج .

يزيد بن المهلب يلى على العراق : توفى الوليد بن عبد الملك سنة ست وتسعين ، وأفضت الخلافة الى سليمان بن عبد الملك ، فولى يزيد العراق دون خراسان .

ولم تكن ولاية يزيد بن المهلب العراق بالتى تسره كل السرور ، فقد حسب لولاية العراق ألف حساب ، فقد نظر فى نفسه وما هو قادم عليه من هذا الأمر الجسيم فقال فى نفسه : ان العراق قد أحربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، يفزعون الى فى نوائبهم وقضاء حوائجهم وحمل كلهم ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه ، صرت مثل الحجاج : أدخل على الناس الحرب ، وأعيد عليهم تلك السجون التى عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى . فأعمل الحيلة فى أن يحط عن نفسه مؤونة الخراج ، فجاء الي سليمان وقال له : أدلك على رجل بصير بالخراج توليه اياه « صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم » فقال : قد قبلنا رأيك فيه (وجل هم يزيد أن يكون التقصير فى أمر الخراج آتياً من قبل غيره ، ولم يدر أنه بذلك قد كاد نفسه)

قدم صالح العراق قبل مقدم يزيد ، ونزل واسط ، فلما قدم يزيد العراق قدم الناس يتلقونه من بعد ، ولم يخرج صالح حتى قرب من مدينة واسط ، فخرج اليه وبين يديه أربعمائة جندى من جنود الشام ، فلقى يزيد وسايره حتى دخل المدينة ، وقال له : قد فرغت لك هذه الدار ، ثم مضى صالح . ومن هذا الوقت أحس يزيد بتضييق صالح عليه ، وقد ظهرت آثار هذا التضييق فى أمور :

١ — اتخذ يزيد ألف خوان يطعم الناس عليها فأخذها صالح ، فقال له يزيد : اكتب ثمنها على .

٢ — اشترى يزيد متاعاً كثيراً وصك صكاكا الى صالح ليبتاعها منه فلم ينفذها ، فرجع أصحاب الصكاك الى يزيد ، فغضب وقال : هذا عملى بنفسى . وذلك أن سليمان كان قد ولى يزيد حرب العراق وصلاتها وخراجها فاستغناه من الخراج وأشار عليه بصالح كما قدمنا.

لم يلبث صالح أن جاء الى يزيد فوسع يزيد له ، وكان بينهما الحوار الآتى : —

صالح : ما هـذه الصكاك ؟ إن الخراج لا يقوم لها ، ولقد نفذت لك صكاكا بمائة ألف درهم ، وعجلت لك أرزاقك ، وسألت مالا فأعطيتك ، فهذا لا يقوم له شيء ولا يرضى به أمير المؤمنين وتؤخذ به . يزيد : يا أبا الوليد أجز هذه الصكاك هذه المرة ، وضاحكه . صالح : انى أجيزها فلا تكثرن على . يزيد : لا أكثر عليك .

هنا حاسب يزيد بن المهلب نفسه ، وعلم أنه جنى على نفسه ، ووازن بين همته وبين الوضع الذى وجد عليه ، فسجية كرمه تأبى الا أن ينفق و يغدق ، ومن فى يده المال لا يوافقه على ذلك ، ففتقت له الحيلة أن يطلب من أمير المؤمنين إمرة خراسان ، لأن بها الغزو المقرب للغنى والغنائم الرغيبة التى ينفق منها عن سعة اتفاقا يتفق مع كرمه وكرامته وهمته ، غير أن يزيد أراد أن يكون الامر صادراً اليه من الخليفة دون أن يطلب هو ذلك ، فطلبها طلباً غير مباشر ، ذلك أنه عمد الى عبد الله بن الأهيم ، وكان داهياً أريباً ، فكان بينهما الحوار الآتى : —

يزيد : إنى أريدك لأمر قد أهمنى ، فأحب أن تكفينيه . عبد الله : أفعل . يزيد : أنا فيما ترى من الضيق وقد ضجرت منه ، وخراسان شاغرة برجلها فهل من حيلة ؟ عبدالله : نعم . سرحنى الى أمير المؤمنين . يزيد : اكتم ما أخبرتك

على اثر هذا الحديث القصير ، كتب يزيد الى الخليفة يعلمه علم العراق ، ويأتى على ابن الأهيم ، وذكر فضله وعلمه بالعراق وخراسان ، وبعث بالكتاب مع ابن الاهيم . فلما قدم على سليمان قال له : إن يزيد كتب الى يذكر علمك بالعراق وخراسان فكيف علمك بها ؟ قال أنا أعلم الناس بها : بها ولدت ، وبها نشأت ، ولى بأهلها خبر وعلم . قال : فأشر على برجل أوليه خراسان ، قال : أمير المؤمنين أعلم بمن يريد ، فان ذكر منهم أحدا أعلمته برأيى فيه . فسمى رجلا من قريش . فقال ليس من رجال خراسان ، قال : فعبد الملك بن المهلب . قال : لا يصلح فانه يصبو عن هذا ، فليس له مكر أبيه ولا شجاعة أخيه . حتى عدد رجالا كان آخرهم وكيع بن أبي سود ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وكيع رجل شجاع صارم رئيس مقدام ، وما أحد أوجب شكراً ولا أعظم عندى يدا من وكيع ، لقد أدرك بثأرى ، وشفانى من عدوى ، ولكن أمير المؤمنين أعظم حقا ، والنصيحة له تلزمنى . إن وكيعا لم تجتمع له مائة عنان قط ، إلا حدث نفسه بغدرة ، خامل فى الجماعة ، ثابت فى الفتنة . قال : ما هو ممن نستعين به فمن لها و يحك ؟ قال : رجل لم يسمه أمير المؤمنين . قال : من هو ؟ قال لا أذكره حتى يضمن لى أمير المؤمنين ستر ذلك ، وأن يجيرنى منه إن علم . قال نعم . قال عبد الله : يزيد بن المهلب . قال سليمان : العراق أحب اليه من خراسان . قال ابن الأهيم : قد علمت ولكن تكرهه فيستخلف على العراق و يسر ، قال أصبنا الرأى ، وكتب عهد يزيد على خراسان ، وسرح به عبد الله بن الأهيم ، فلما قدم على يزيد أخذ فى الجهاز للسفر من ساعته

« يتلى »

عبد الوهاب النجار